في الذكرى الحادية عشرة
للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

من اجل ثقافة بروليتارية ثورية..

بقلم: هَادي دانيال

في الوقت الذي تحشد فيه البرجوازيات الكمبرادورية العربية كل امكانياتها المالية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، يحار المثقفون التقدميون العرب في كيفية التصدي للنشاط الثقافي الكمبرادوري الذي يرسخ مفاهيم نزعة الاستسلام الإوطني والطبقي . فعوضا عن حشد الطاقات الثورية وتنظيمها وصياغتها بما يتلاءم مع التصميم الجذري على التصدي الثوري يزدادون تبعثرا وتفسخا ، ويتراجعون الى مواقع البرجوازية بشتى الوانها السياسية والى مواقع التحريفية المحلية اليمينية منها واليسارية الطفولية . وذلك نتيجة لنفوذ التحريفيات العالمية وللبنية الطبقية والايديولوجية لهذه الاوساط المثقفة . وهم بذلك لم يعبروا عن فقدان الثقة فحسب بالبروليتاريا وفكرها الثوري ، وانما شككوا في وجودها في المجتمع العربي ليبرروا عجزهم التاريخي في تجسيد الشعارات « الواقعية » التي طرحوها .

وقد التقت كافة التيارات الثقافية حول قاسم مشترك وهو نفي وجود ثقافة بروليتارية ، مدعية ان الثقافة الثورية الوحيدة هي الثقافة البرجوازية الديمقراطية !. وقد تعزز هذا الاتجاه نظرا لكون الاتجاه اليساري في صفوف الحركة الشيوعية - ابان غياب لينين وحكم ستالين منذ العشرينات - تمثل بتروتسكي ، حيث لعبت مقالاته التي جمعها في كتابه « الادب والثورة » دورا واضحا في تكريس فهم نظري مماثل للستالينية عمليا في الغائها وجود الادب البروليتاري باحلال الادب البيروقراطي ، والادب الديمقراطي البرجوازي . اما ان « يصبح الادب جزءا من القضية البروليتارية العامة » كما قال لينين ، مسألة غابت عن الوجود لمرحلة تاريخية في بلادنا ، وفي دعوة المثقفين البرجوازيين الديمقراطيين والتحريفيين .

مفاهيم ستالينية

ويستهدف هذا المقال الدعوة الى انشاء ثقافة بروليتارية ثورية ، تدك مواقع الثقافة السائدة وتحتلها ، لذا فليكن واضحا ان ادعياء الثقافة « التقدمية او الانسانية او الديمقراطية » يشكلون موقعا خطيرا من مواقع الثقافة المضادة للبروليتاريا العربية .

لقد حدد التحريفيون العرب تصورهم للثقافة كما يلي :

١ - الثقافة برجوازية بطبيعتها لذلك يجب كسبها الى موقع ديمقراطي !

٢ - الثقافة الحزبية هي الثقافة التي تعيد صياغة شعارات الحزب الانية وهكذا كان الاديب او الشاعر بوقا دعائيا لشعارات الحزب المحدودة والانية ، بينما كان الحزب بدوره سلما دعائيا لصعود الاديب وتحقيق طموحات ذاتية ضيقة !

٣ - الثقافة بطبيعتها !! تقدمية تدعو للسلام والانسانية والتعايش السلمي .

٤ - فتح المجال امام نمو التيارات البرجوازية الليبرالية - باعتبارها الوجه الاخر للعملة الستالينية المحلية - ! .

وهكذا ظلت الثقافة فوقية بعيدة عن الجماهير بحجة ان الجماهير التي تبحث لقمة العيش ، ابعد ما تكون عن التفاعل مع الثقافة !.

هكذا فهم التحريفيون العرب دور الثقافة ، واعتبروها كالتكنولوجيا لا يمكن امتلاكها بروليتاريا **الا** بعد انتصار الثورة الاشتراكية !.

ونتيجة لرفع الثقافة وتحييدها - الرائف والمتواطىء - عن الصراع الطبقي ، نجد شاعرا عرف بكونه تقدميا لفترة ماضية في قطر عربي لا يجد حرجا في نظم قصيدة مديح للملك الحسن الثاني الذي يصر على ان يبقي الشاعر البروليتاري الثوري المغربي « عبد اللطيف اللعبي » سجينا في زنازينه السوداء لانه رفض الا ان يكون شاعر الطبقة العاملة في الصراع الدائر بين الرأسمالية المغربية والبروليتاريا المغربية ايضا .

ثقافة برجوازية بيروقراطية

نشأت الثقافة البرجوازية الاوروبية مواكبة الثورة الصناعية في اوروبا ، وتلبية لمصالح الصعود البرجوازي وتناقضه الصدامي الحاد مع مجتمع اقطاعي كنسي مسلح بثقافة دينية غيبية رجعية حتى النخاع ... فكانت الميزة الرئيسية والايجابية في تلك الثقافة البرجوازية الحادتها ونزوعها المادي ، فقام مثقفوها

فنانين وادباء ومفكرين بدحض الفكر الغيبي والاخلاق الاقطاعية وانتقاد وتهشيم كل ما هو مثالي غير عقلاني من مخلفات العالم القديم . ولكن ما ان انتصرت البرجوازية في اوروبا نهائيا حتى بدأت تطالب مثقفيها بالكف عن السير الى الامام ، بل التوقف لصياغة ما وصلت اليه هذه الثقافة بما يتلاءم ومصالح البرجوازية الاوروبية كطبقة سائدة ، وهكذا بدأ فصل الشكل عن المضمون في الادب والفن والتركيز على الشكل بحجة الفن الخالص ، معتبرين الشكل هو الفن ، وعلى هذا الاساس ولدت وتورمت تيارات ثقافية كالسوريالية والدادائية والتكعيبية ، وبدأت الوجودية باعتبارها الاكثر انسجاما مع شعارات الثورة البرجوازية بالتراجع او التلاؤم مع معطيات الواقع الرأسمالي الجديد . وما نشوء هذه التيارات الثقافية الجديدة سوى استجابة لمصالح البرجوازية الاوروبية التي ترى : اقامة كيان ثقافي منفصل عن الحياة الاقتصادية والسياسية ، وتسخيره للنظام الاقتصادي والسياسي عند اقتضاء الحاجة .

لقد قامت الطبقة البرجوازية الاوروبية « بتكريم » ثقافتها وعزلها في صالونات ومتاحف خاصة تلجأ اليها في اوقات التسلية والفراغ . لقد خصصت البرجوازية الاوروبية جزءا من ارباحها الطائلة لاستيعاب كل مذهبة ثقافية

لينين و غوركي

جديدة وضمها الى البرج العاجي ، الذي يفصل المثقف عن واقع الجماهير البائس في ظل مجتمع طبقي رأسمالي .

وقد حاولت البرجوازية الاوروبية بشتى السبل قمع الادب الذي يعبر عن الطبقة الثورية الوحيدة بوجه البرجوازية الحاكمة ، الطبقة العاملة .

ان الادباء البرجوازيين الذين عكسوا في ادبهم النهوض الثوري للبرجوازية الاوروبية بوجه الاقطاع حصدوا نتاج خدمتهم لطبقتهم وظلوا مستمرين في خدمتها لانهم جزء من هذه الطبقة ويعبرون عن مصالحها في صعودها وهبوطها .

وبما ان شرائحا من البرجوازية الصغيرة استطاعت الاستيلاء على الانظمة السياسية في منطقتنا العربية بواسطة اجهزة الجيش ، ونظرا لعجز البرجوازية العربية الكبيرة اقتصاديا وسياسيا عن هزيمة الاقطاع المرتبط بالاستعمار ، حاولت البرجوازية الصغيرة ان توهم الجماهير العربية العريضة انها قادمة لانقاذ شعبنا من ظلام التخلف الاقتصادي والسياسي والثقافي ، رافعة شعارات الثورة البرجوازية الاوروبية ، في حين لم تستطع على المدى البعيد اكثر من المحافظة على تعايش الطبقتين البرجوازية والاقطاعية ، في ظل حرابها العسكرية .

هذا لا ينسينا ان هذه الانظمة البيروقراطية رغم تباين الوانها السياسية احيانا ، حاولت ان تعبر عن الهموم الوطنية والقومية للجماهير العربية ، واستطاعت ان تثير مشاعر الشارع العربي بالشعارات الوطنية والقومية تحت شعار التحالف الطبقي ! وتصوير نفسها كأنظمة لكل الطبقات « الثورية » عمال وفلاحين وبرجوازيين صغار وبرجوازيين وطنيين ، ولكن سرعان ما تهاوت امام تفاقم الصراع الطبقي اقتصاديا واجتماعيا لتجد نفسها امام طريقين : طريق اكمال الثورة الوطنية الديمقراطية ومحاربة البرجوازية واجتثاثها كالكومبرادورية خصوصا ، او الطريق الاخر الذي اختارته كما يبدو : طريق الانهيار الكامل للامبريالية والوقوف في الجبهة المعادية للجماهير والطبقة العاملة . ولكن الفترة التي اطلق فيها سراح الثقافة الوطنية من فن وادب لم تضع سدى حيث تم استغلالها ما امكن من مثقفي البروليتاريا ، لان هذه الفترة شكلت تربة جماهيرية خصبة لولادة ادب وفن طبقيين . فالجماهير التي تطالب البرجوازية البيروقراطية بممارسة وتطبيق الشعارات الوطنية والاصلاحية التي طرحتها ستطالب بعد تخلي البرجوازية عن شعاراتها بقوة طبقية ثورية قادرة على اتمام المرحلة الوطنية الديمقراطية للانتقال الى الاشتراكية ... وليس ثمة طبقة مؤهلة لذلك سوى البروليتاريا . لقد حاربت البرجوازية البيروقراطية طلائع الثقافة البرجوازية العربية . فاعتبرت اشعار بعض الشعراء البرجوازيين من المحرمات . وفي الوقت ذاته قامت بضرب مراكز الثقافة الاقطاعية وتحجيم نشاطاتها . وذلك لصالح ثقافة جديدة غير اصيلة تطرح شعارات « وطنية تقدمية » فضفاضة غير محددة او واضحة . ولكنها منمقة وملمعة بما يكفي للفت الانتباه الذي سرعان ما يتضاءل ويختفي - اعني الانتباه - .

فبعد حصر وسائل النشر والتوزيع والاعلام في مؤسساتها الرسمية ، لجأت البرجوازية البيروقراطية العربية ، الى البرجوازية الاوروبية تطلب النصح والارشاد ... فكانت النتيجة : فرض فصل الشكل عن المضمون .

فهي شجعت المضمون الرجعي الاقطاعي في شكل برجوازي مستورد ، وهي بذلك قامت بعزل الثقافة الاقطاعية عن الساحة الجماهيرية ، ولكن ليس عزلا تاما بل تكبيلا قمعيا مفضوحا في قوالب برجوازية دخيلة غير متقنة . وهكذا كنا نلاحظ المضمون الصوفي في شكل محدث عند بعض الشعراء كما نرى المفاهيم الدينية الرجعية كليا في شكل فني جديد عند بعض اخر ... بينما كان شاعر معروف ومنسجم كليا مع مصالح وطبيعة طبقته البرجوازية يجتاز حواجز البيروقراطية الى الجماهير العريضة التي تتفاعل مع مضامين قصائده « التحررية » اجتماعيا ، وشكلها المفهوم جماهيريا (علما ان البرجوازية البيروقراطية كانت اذكى من ان تعارض بعض المضامين الاشتراكية ، التي كانت ترد ضمن اشكال برجوازية ، وذلك لان فصل الشكل عن المضمون كفيل بحجب المضمون عن الجماهير ، مع ايهام المثقفين بديمقراطية النظام البيروقراطي !) . كل ذلك يجري في ظل غياب ثقافة بروليتارية .

لقد ارادت البرجوازية البيروقراطية عزل الثقافة عن الجماهير ، فلم تستوعب هذه الجماهير عملا فنيا واحدا خرج من معطفها ، رغم ما خرج من اعمال كلاسيكية تمتدح جنرالا او تصيغ شعارا مرحليا .

ان بعض مثقفي هذه البرجوازية البيروقراطية يجهرون ، الان ، انفسهم لتقديم اوراق اعتمادهم للبرجوازية الكومبرادورية ، بينما من ادعوا التقدمية يندبون حظهم ، يبكون على اطلال اوهامهم كبرجوازيين صغار ...

الثقافة في ظل انظمة البرجوازية الكومبرادورية

اما الامبريالية العالمية ومركزها الولايات المتحدة الامريكية ، فقد استعملت الثقافة اخبث استعمال ، وذلك بتحويلها من تحف في صالونات خاصة بالطبقة البرجوازية ، الى سلاح فعلي سياسيا واقتصاديا .

لقد بدأت بأكثر الفنون جماهيرية - السينما - وانشأت اكبر المؤسسات لانتاج الفن السينمائي في العالم - هوليود - ، ووضعت امام السينمائيين الامريكيين اضخم الامكانيات المادية والتقنية ، كما استقطبت اهم الكتاب والادباء في امريكا والعالم داعمة بذلك ترسيخ تمركزها ثقافيا ايضا . والثقافة الامبريالية ضربت بالمفهوم البرجوازي القديم للثقافة وشعار الفن للفن عرض الحائط ، وحولت هذا الشعار الى شعار اكثر وضوحا ، وهو شعار : الثقافة والادب في خدمة الامبريالية .

فهي حولت النتاجات الثقافية الى سلع تغزو بها المحيط الامبريالي ، فهي تصدر الى بلداننا المتخلفة الافلام السياسية المعادية للاشتراكية ، وافلام التمييز العنصري والجنس والعنف لزيادة ادمغتنا تشويشا ومجتمعاتنا تفسخا ، اضافة الى ان معظم الافلام تستعمل في الدعاية للمنتوجات الاقتصادية